



للأستاذ توفيق الحكيم

ما أطول حديثنا الصامت في برجنا العاجي ! هذا البرج الذي يحرسه « تنين » الوحدة ! وما أكثر تلك الخواطر التي تمر برؤوسنا أحياناً كالطيور العابرة دون أن نقتنص منها شيئاً ! هنا داخل هذا الإطار وبين هذا السياج سأحبس ما يقع منها تحت ذاكرتي . وإن خواطري لكثيرة ، لأن أوقات عزالي طويلة ؛ وليس لي علم بلمب النرد ولا غيره من وسائل قتل الوقت ، فالوقت عندي هو الذي يقتلني لأنني لا أعرف كيف

وتتابع الأحداث حتى كانت وقعة صراج دابق في رجب سنة ٩٢٢ قبل وقعة جالدران بستين ثلاث . وتصورت سليماً يحرز نصراً بعد آخر ويطوي مملكة بعد مملكة بجنده وعدده ، ولا سيما هذه المدافع التي لم يتسلح بها محاربوه

وعدت أنذكر ما أعقبت عداوة سليم وإسماعيل من عداوة بين المسلمين ، وما أثارنا من ضغينة بين أهل السنة والشيعة ، وما كان القتال إلا على السلطان والجاه وإنما كانت المذاهب تملأ

ثم تبادت الفكر وتوالت الدهر فأخذت أقيس الرجال الثلاثة واحداً بآخر ، وأنذكر ما كان منهم في السياسة والعلم والأدب . وقلت : هؤلاء الثلاثة الذين سيطروا على وسط البلاد الإسلامية كانوا يمثلون ثقافة الأمراء المسلمين . وفيما أثر عن ثلاثتهم من شعر نماذج من أدب أمراءنا في القرن العاشر الهجري . وهمت أن أكتب إليك في هذا يا صاحب الرسالة ثم تذكرت أنني أصف آثاراً في متحف ، وأن الكلام على قانسوه وإسماعيل وسليم جدير أن يستأثر بمقال أو أكثر

ولعلني أجده لذلك فرصة بعد

عبد الرهاف عزام

أقتله . ولقد حاولوا كثيراً في صباي أن يعلموني تلك الألعاب التي تلهى الناس عن أنفسهم في أوقات الفراغ ، ولكنني كنت أنسى دائماً في المساء ما علموني إياه في الصباح ؛ ولم ينفع في أمرى تعليم ولا تفهيم . وخرجت من عهد الصبا دون أن أحقق لعبة أو أحجية . شيء واحد كان يلهمني ويسرنى ، وقد كان عندي بمثابة النرد والأحاجي : ذلك هو الجدل حول فكرة من الأفكار . ولكم أتعبت كثيراً من أولئك الذين كانوا يلعبون معي هذا الضرب من الشطرنج في وقت من الأوقات ! لقد كنت أضيع عليهم نهراً بأكمله دون أن أمل ؛ وإن رؤوسهم لتكفل فما أرحمهم ولا أرحم نفسي . إن حب التفكير لنقمة . آه لو علم الناس كيف يبيتش الأدباء ورجال الفكر ! إذن فليعلموا أن القدر يوم دفع الأدباء إلى الوجود صاح فيهم ساخراً : « اذهبوا فإن لكم الفكر ، ولكن ... »

ولم يتم كلامه وانقسم ابتسامة هي أبلغ من التعبير نعم . مامن أديب أو مفكر إلا أدرك أخيراً بعد أن قطع شوطاً من الحياة أن شيئاً آخر ربما كان أجدى عليه من الفكر قد سلب منه إلى الأبد ! إننا نحسد أحياناً بقية الناس . وإنني لأتصور القدر وهو يشيع الآخرين إلى باب الوجود فيقول لهم : « اذهبوا فإن لكم الحياة ... ولكن ... »

أجل إنه يتسم لهم كذلك عين ابتسامته الساخرة ، ولكن هؤلاء الناس لا يفهمون مطلقاً أن القدر قد سلبهم شيئاً . وهنا الفرق بيننا وبين بقية الناس : إننا نحن رجال الفكر ندرك تمام الإدراك ما سرق منا وما فقدناه ؛ أما الآخرون فلا يعلمون . وهذا سر عذابنا نحن

والآن وقد تكشف لنا حياتنا الفكرية عن برج مرتفع لا خروج لنا منه ؛ برج يملؤه الكون ولا نسمع فيه غير صدى أصواتنا الضائعة ؛ فلتكلم إذن بين تلك الجدران . فإن رجعت الصدى يؤنس على الأقل وحشتنا

توفيق الحكيم